



أمل السعيد

إشكالية موقع التاريخ العربي من التاريخ الكوني

اتجه عصر التنوير إلى تحقيق ما يعرف بوحدة التاريخ الكوني، ذلك الذي يسير إلى صورة عالمية قادرة على أن تحتوي البلدان والمجتمعات تحت جناحها، حيث ترتبط بعلاقات قوية، وانفتاح كبير ولافت، يتم فيه تجاوز جميع القوميات لعصبياتها التقليدية كالهوية، والقومية، والحدود الجغرافية، والخصوصية الثقافية وغيرها. وكان ذلك عبر ظهور مقولات تاريخية تؤسس لوحدة التاريخ الكوني كان منها: الدولة، القومية، والديمقراطية، والاستقلال، والحرية، والعدالة وغيرها من المفاهيم. ومن أبرز نتاجات عصر التنوير فيما يتعلق بتحقيق هذا الهدف أيضاً: الانتقال من التاريخ المؤدلج إلى علم التاريخ، التاريخ المؤدلج الذي يتخذ قناعاً في الوقت الذي يدعي فيه تبني نظرة كونية حقيقية فيما يسعى في واقع الأمر إلى تحقيق مصالحه الخاصة، كما حدث عند الأنظمة الشيوعية والنازية والفاشية وغيرها.

بالوحدة العربية في ظل وجود أنظمة غير مستقرة؟ ليس هذا فحسب، تبنى الخطاب النهضوي العربي مسألة الحرية كقيمة حاسمة وهامة، تساهم في ظهور النزعة الفردانية لدى أفراد المجتمعات العربية، لذا فإنه ومن الواضح أن دفاع العرب عن هذه الحرية وعن استقلاليتهم وسيادة أراضيهم يشكل أقصى درجات الوعي بإشكالية موقع العرب في التاريخ العالمي لكن هذا التوجه، الذي أخذ بعين الاعتبار كل ما ينطوي على المجتمعات الحرة من تحقيق للعدالة ولتأسيس المجتمع المدني اصطدم بالحضور الأمريكي ذلك الذي يرغب في دوام استمرارية سيطرته. ويخالف ذلك مصلحته، ولعل الكيان الصهيوني المدعوم من أمريكا دليل على ذلك. ناهيك عن عدم دراسة المفكرين العرب لتجارب الدول الأخرى دراسة معمقة، وتبعتها للغرب، تلك التي تجابهها دعوة للتمسك بالهوية والتراث من قبل السلفيين فصار العرب بين فكين اثنين، أولهما يتبنى مشروفاً تخريبياً يفترق للأصالة وثانيهما يريد تمسكاً بالتراث في ظل عدم اعتراف بقيم التسامح العالمية. هذا بالإضافة إلى مشكلات مرتبطة بالتنمية الاجتماعية والرخاء الاقتصادي، ولعل أبرز الشواهد عليها تنامي الأمية والفقر والبطالة والمجاعة والتصحر وغيرها.

يحتاج المثقفون العرب لمراجعة خطابهم، وتبني آخر يفهم خصوصية المجتمعات العربية التي لا تحتاج إلى اجترار مقولات تاريخية تشكلت في ظروف مختلفة عن ظروف الواقع العربي اليوم. يعيش العرب اليوم خيبة مريرة واعتراباً كبيراً سببه الخسارات المتوالية التي حولت الإنسان العربي إلى مجرد عدد ليس إلا. يقول الباحث مسعود ضاهر إن على العرب أن يفرقوا بين الاستفادة من العلم والتقدم التكنولوجي وقبول المقولات الليبرالية والعقلانية التي أنتجت ذلك العلم، وأجدني أختلف معه؛ نعم نحن بحاجة لتبيان المكان السانح لاستقبال تلك التاويلات، لكننا قبل مسألة الفصل هذه نحتاج إلى دعوة لفحصها، والخروج بوحدة تلائم التراث وتشارك معه، فدعوة الكثير من المثقفين العرب في زمن التطاحن الديني بين المسلمين أنفسهم إلى علمانية جديدة، تعرف هذه العلمانية وتعني أن احترام التراث مسألة لا مناص منها.

الأمريكية على العالم. فحص الكاتب هذا الموضوع من جانبين: أولهما: إشكالية الوعي العربي بالتاريخ العالمي في ظل الدول المستقلة وذلك عبر تقديم معالجة لاسئلة تتعلق بالهوية القومية، والسياسة المتنورة، والحرية والانظمة الديمقراطية في الوطن العربي، وتقدم المفكرين العرب، والتنمية. وثانيهما: إشكالية وعي التاريخ العربي بمسيرة التاريخ العالمي في عصر العولمة عبر إشارة ثلاث نقاط: الخروج من الاقتباس السهل لمقولات الغرب الثقافية، وموقع العرب في النظام العالمي الجديد، وبناء حداثة سليمة وعصرية.

بعد مرحلة الاستقلال السياسي التي مرت بها الدول العربية عدا فلسطين، وفي ظل تحقيق البلدان والقارات لشخصيات وأوار تليق بها في التاريخ العالمي وجد العرب أنفسهم إزاء الحاجة للانخراط في وحدة سياسية واقتصادية، على أسس ديمقراطية تحترم التعدد وتخلص من عباءة النظام الأبوي الذكوري والأرثوذكسي بتعبير الكاتب محمد أركون. وكان السؤال الأول على طاولة العرب آنذاك، يتمحور حول التعرف على الذات العربية أكثر، انطوى عليه الرغبة في تحديد موقع العرب مما أفضى إلى حالة من التوتر في خضم محاولة الوصول إلى هذه المعرفة، فلا بد أن هذا السؤال اصطدم بتكوينات ثقافية كثيرة، حالت في ظل ظروف كثيرة دون الوصول إلى صيغة نهائية عنه. وهذا كله يخالف ما ذهب إليه التاريخ الكوني من نية في تجاوز هذه التكوينات التي تعتمد في حقيقتها على جملة من العصبية التقليدية، ويذهب المنظرون في هذا المجال إلى أن الهوية الكونية هي الطريق السالك إلى التاريخ الكوني. وهنا تكمن إحدى التحديات الهامة بالنسبة للعرب، فهناك حالة من الخوف تجاه الهيمنة الأمريكية أفضى إلى عودة متطرفة للقومية. هنالك أسباب أخرى تدفع إلى هذه النتيجة بلا شك منها، مشاكل الأنظمة العربية مع حدودها الإقليمية غير المستقرة، وعرضتها للتغيير الجذري، سواء على مستوى القيادة السياسية، أو على مستوى الحدود، لعل الربيع العربي كان شاهداً على توضيح ذلك في الآونة الأخيرة، فما هو الأثر الذي نتوقه فيما يتعلق

وعلى الضد تماماً يتعامل علم التاريخ مع مسار التاريخ بكل معطياته بطريقة علمية، موضوعية. واليوم نجد أن هيمنة العولمة الأمريكية تسيطر على التاريخ الكوني، ليس هذا فحسب، فهي بعد كل التحولات التاريخية الهامة مروراً بسقوط الإمبراطوريات الكبرى وظهور الدولة القومية والإمبرياليات، الحرب العالمية الأولى والثانية، فالحرب الباردة، وظهور التكتلات الجغرافية العسكرية الكبرى كالاتحاد الأوربي وحلف الناتو، تعود بنا إلى ذلك التاريخ المؤدلج، الذي يحقق لأمريكا مصالحها الخاصة وكان أن ظهر نتيجة لذلك ما يعرف بصراع الحضارات، ونهاية التاريخ وتقسيم العالم إلى محورين، الخير والشر. لم توفر أمريكا أدواتها، فقد تم تشويه المقولات التاريخية كما حدث لفلسفة هيغل الجدلية في التاريخ كشاهد آخر على الأدلجة، أصبح المشهد اليوم يوثق انحرافاً حاداً عن مسيرة التاريخ العالمي بالمفهوم الإنساني لمقولات عصر الأنوار إلى التاريخ المولم أمريكياً. في ضوء هذا كله، يسأل الباحث: مسعود ضاهر في مقاله في مجلة التامسج: «إشكالية الوعي التاريخ العربي في المرحلة الراهنة» عن إشكالية الوعي العربي من مسيرة هذا التاريخ العالمي لحظة تحوله إلى تاريخ ممولم أمريكياً بعد أن باتوا أول ضحاياه.

يبدأ الباحث مقالته هذه بالإشارة إلى الهواجس المنهجية التي رافقت عمل من أسهموا في التأريخ للنهضة العربية، ولعل البداية كانت حول المقصود بالوعي التاريخي العربي، ذلك أنه لا يعني استحضر ماضي العرب الذهبي لتوظيفه في الوقت الراهن، أي في زمن غير زمانه بل تعني حاجة العرب إلى الاستفادة من دروس التاريخ العالمي، وبناء مشروع نهضوي بمواصفات عصرية جديدة يؤسس لدور فاعل للأمة العربية في مسيرة التاريخ الكوني، في الوقت الذي يحضر فيه سؤال هذه الإشكالية، تواجه الأنظمة العربية جملة من التحديات الكبرى، بداية بتبعيتها للنظام العثماني، وخضوعها للاستعمار الأوربي ومشروع الاستيطان الصهيوني على فلسطين ذلك الذي حال دون تحقق وحدة الدول العربية بعد إسهامه في الكثير من الظروف، منها الحرب الأهلية في لبنان على سبيل المثال. وما هي تواجه اليوم سيطرة العولمة